الوثيقة

العدد الثاني - السنة الأولى - ربيع الأول ١٤٠٣هـ - يناير ١٩٨٣م

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

البحرين في القرن السابع الهجري

الصراع بين قيس وهرمز يفتح

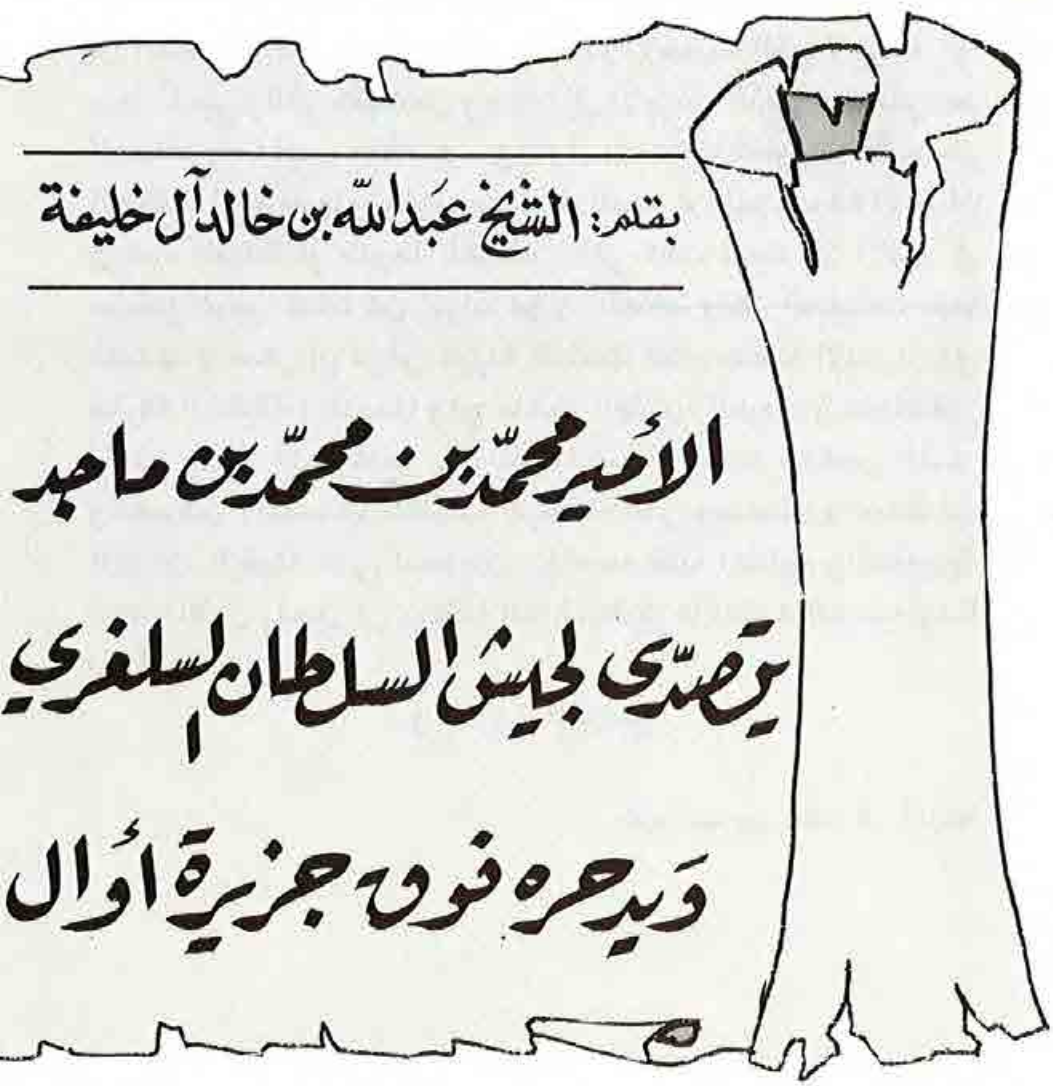

بقلم: الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الأمير محمد بن محمد بن ماجد يتصدى لجيش السلطان السلغري ويدحره فوق جزيرة أوال

الباب لوصول السلغريين إلى الخليج

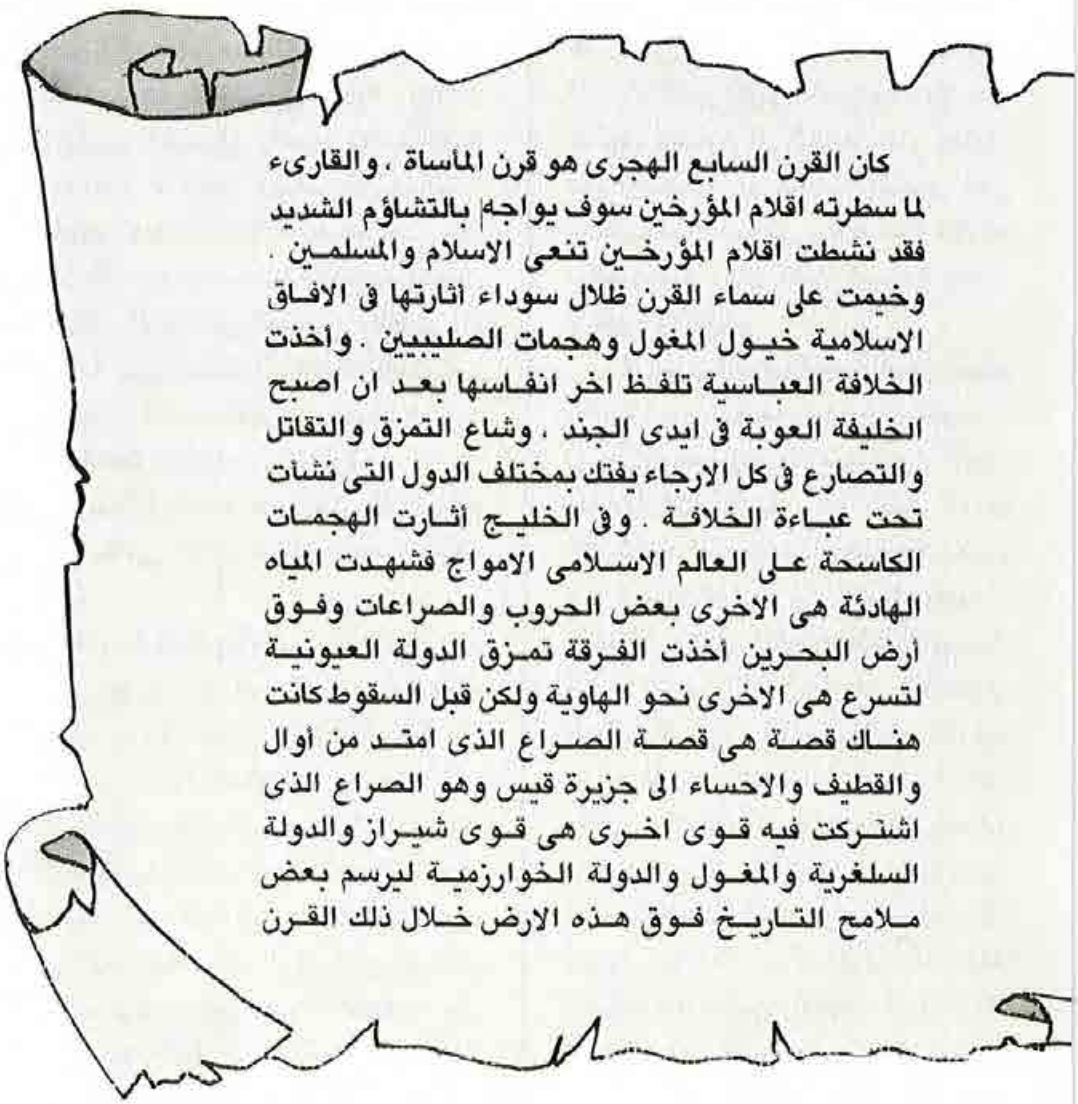

كان القرن السابع الهجرى هو قرن المأساة ، والقارىء لما سطرته اقلام المؤرخين سوف يواجه بالتشاؤم الشديد فقد نشطت اقلام المؤرخين تنعى الاسلام والمسلمين . وخيمت على سماء القرن ظلال سوداء اثارتها فى الافاق الاسلامية خيول المغول وهجمات الصليبيين . وأخذت الخلافة العباسية تلفظ اخر انفاسها بعد ان اصبح الخليفة العوبة فى ايدى الجند ، وشاع التمزق والتقاتل والتصارع فى كل الارجاء يفتك بمختلف الدول التى نشأت تحت عباءة الخلافة . وفى الخليج أثارت الهجمات الكاسحة على العالم الاسلامى الامواج فشهدت المياه الهادئة هى الاخرى بعض الحروب والصراعات وفوق أرض البحرين أخذت الفرقة تمزق الدولة العيونية لتسرع هى الاخرى نحو الهاوية ولكن قبل السقوط كانت هناك قصة هى قصة الصراع الذى امتد من أوال والقطيف والاحساء الى جزيرة قيس وهو الصراع الذى اشتركت فيه قوى اخرى هى قوى شيراز والدولة السلغرية والمغول والدولة الخوارزمية ليرسم بعض ملامح التاريخ فوق هذه الارض خلال ذلك القرن

يجمع المؤرخون على ان القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، كان قرن النحس بالنسبة للاسلام والمسلمين ، ويقولون ان هذا القرن كان من أسوأ القرون التى مرت بالعالم الاسلامى الذى أطلت شمسه على بقاع شاسعة من المعمورة والذى حمل المسلمون راياته الى أقصى الغرب الافريقى والى مناطق موغلة فى الشرق الاسيوى . ففى هذا القرن بدأت الخلافة العباسية طريقها نحو النهاية ، وفتكت دسائس الخصيان والعبيد وقادة الجند بما امتاز به البيت العباسى من صلابة ، وأخذت قبضة الخلافة تضعف تدريجا وتتآكل تبعا لضعفها الاقاليم وتحول العالم الاسلامى الفسيح والقوى الى خلافة هزيلة تلفظ انفاسها الأخيرة . ودويلات أخذت تظهر هنا وهناك فى جو من التقاتل والتناحر والعداوة .

ونظرة واحدة على خريطة العالم الاسلامى انذاك تؤكد هذه الحقيقة المرة .

ففى غرناطة بالاندلس كانت دولة بنى نصر وفى شمال افريقيا كانت دولة الموحدين وفى الجزائر الدولة الزيانية وفى تونس الدولة الحفصية وفى مراكش الدولة المرينية وفى مصر دولة المماليك البحرية وفى اليمن الدولة الرسولية ، وفى صنعاء أحد أئمة الزيدية وفى بلاد الروم من السلاجقة ركن الدين قليج ارسلان الرابع وفى ماردين الدولة الارتقية وفى فارس الاتابكية السلغرية وفى لورستان الاتابكية الهزارسنية وفى كرمان دولة قطلغ خان [1].

دويلات هنا وهناك . أما فى بغداد فقد كان الخليفة العوبة فى يد الامراء الاتراك ثم فى ايدى بنى بوية الديلميين والسلاجقة ولم يعد له سوى الاسم خاصة وقد ثبت فى أذهان الناس منذ العصور الذهبية للاسلام أن الخلافة نظام لابد منه لصلاح العالم . وأصبح كثير من الامراء فى هذه الدولة وهم الامراء الذين كونوا لأنفسهم دولا بحد السيف يلجأون الى الخليفة حتى يعترف بهم ليحصلوا على تأييد الشعوب التى يحكمونها . وحتى يدعموا حكمهم بالشرعية . وان كانت شرعية هشة لا تقدم ولا تؤخر .

وفى القرن السابع أيضا أصبح العالم الاسلامى مستهدفا - وهو شىء طبيعى - لهجمات ضارية وكاسحة من القوى المعادية المحيطة به ، فواصلت أوروبا الاستعداد لتجريد حملة صليبية جديدة هى الحملة الرابعة على الشام ومصر ، وانطلقت جحافل المغول والتتار[2] تعربد فى أرجاء الارض الاسلامية وهى تكتسح فى طريقها كل شىء . الناس والمدن والزروع وتنشر الموت والدمار والخراب فى كل مكان . وقد كانت هجمات المغول شديدة الوطأة لدرجة ان الكثيرين تصوروا وقتها ان الاسلام قد انتهى وان المسلمين قد أبيدوا . واذا كان جنكيز خان[3] قد توقف بحملاته عند فارس وانطلقت قواته شرقا لتستولى على معظم اراضى الصين وتضم

تركستان وبلاد ما وراء النهر وافغانستان والدول الواقعة جنوب الروسيا فان حفيدة هولاكو[٤] تطلع فى زحفه نحو الغرب فاكتسح اتابكيات فارس وقضى على الحشاشين وحاصر بغداد ثم اقتحمها جنده بعد استسلام الخليفة المستعصم بالله تحت خدعة وزيره ابن العلقمى . واشاعوا فيها الخراب واشعلوا فيها النار وعرضوا سكانها على السيف وقتلوا الخليفة واثنين من ابنائه ثم انطلق هولاكو الى شمال الشام ليفتك بحلب ويقتل اعدادا لا تحصى من أهلها . واذا كانت هذه الهجمات قد تحطمت ـ الصليبية فى المنصورة بمصر والمغولية فى عين جالوت بفلسطين ـ الا أن الظلال السوداء التى ملأت بها سماء العالم الاسلامى كانت من القتامة بدرجة افزعت الجميع . ويظهر ذلك واضحا فى كتابات كثير من المؤرخين المعاصرين للأحداث فيقول شيخهم ابن الأثير وهو لم يدرك سقوط بغداد وان عاصر هجمات جنكيز خان :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى ويالبتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . ثم رأيت ان ترك ذلك لايجدى نفعا . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى ادم الى الان لم يبتلو بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »

ويقول ابن الاثير فى موضع اخر من تاريخه الكامل[٥] :

« ولقد جرى لهؤلاء التتار مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان . وتا الله لا أشك ان من يجىء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمن استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى زماننا فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها .... يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ... ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثلما دفعوا اليه الان ... وتعدت هذه الطائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها ثم الى الرى وبلد الجبل واذربيجان [كذا] وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الاخر الفرنج

قد ظهر عن بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على الخطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .»

ويقول ياقوت الحموي [٦] (ت٦٢٦هـ) وكان معاصرا لغارة المغول وصديقا لابن الأثير وقد استطاع أن ينجو بنفسه من الغارة :

« فأنا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر وتفت فى العضد وتشيب الوليد . وتنحب لب الجليد . وتسود القلب وتذهل اللب فحينئذ تقهقر الملوك ـ يقصد نفسه ـ على عقبة ناكصا ومن الأوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالأمن ايسا ...»

كانت هذه نظرة عابرة على القرن السابع الهجرى وحال المسلمين فيه وهو قرن يمكن ان يطلق عليه بحق قرن المأساة . ولكن على الرغم من عمق المأساة التى تعرض لها العالم الاسلامى فان القرن السابع الهجرى لم يحظ من المؤرخين بحقه من التحليل والدراسة . لقد كتبت مئات الصفحات ولكنها تناولت تاريخ هذا القرن بالسرد المسطح المصحوب بالتشاؤم واليأس ولم يتوقف كثير من المؤرخين لتحليل الاحداث التى حاقت بالعالم الاسلامى ويستنبطوا منها طبيعة الخيوط التى كانت تربط بين القوى التى اشتركت فى الهجوم على العالم الاسلامى من مختلف الجبهات .

واذا كان هدفنا من هذا البحث بالدرجة الاولى هو استقراء تاريخ البحرين خلال هذا القرن المضطرب ، الا أننا لا نستطيع ان نتغافل عما تومىء اليه سطور تاريخنا القديم من ظواهر تتبدى ملامحها وسط الاحداث هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان هذه الخطوب احدثت هزة عنيفة فى كل ارجاء العالم الاسلامى ـ والبحرين جزء منه ـ وانعكست اثارها بدرجة او اخرى على القوى التى كانت تحيط بالبحرين والتى كانت على علاقة بالقوى الكبرى المتصارعة فى الساحة .

وقد يكون من المقبول أن نقول ان عنف الهجمة لم يترك فسحة من الوقت للتحليل والتمحيص ولكن المستقرىء لهذه الاحداث اليوم لا يملك الا ان يتوقف طارحا بعض الاسئلة منها :

● لماذا نشطت اوروبا المسيحية فى تجريد حملة جديدة هى حملتها الصليبية الرابعة فى أوائل هذا القرن بعد ان كانت قد توقفت حينا من الدهر . وهل هناك ما يمكن ان نستنبطه من مواكبة غزوات المغول على العالم الاسلامى من الشرق لحملات الصليبيين من الشمال والغرب ؟

● هل هى مصادفة ان بلاط المغول كان به بعض الرهبان المسيحيين ففى بلاط كيوك المغولى الذى تولى الحكم عقب جده جنكيز خان (٦٤٤هـ ـ ١٢٤٦م) كان يوجد بعض القسس من المسيحيين وفريق من البوذيين وقد كانوا يوغرون

صدره باستمرار ضد العلماء المسلمين من أمثال نور الدين الخوارزمى لدرجة انهم طلبوا منه ان يستدعى هذا العالم المسلم ومجموعة من زملائه الى البلاط لمناظرتهم حول الاسلام والمسيحية فلما أفحمهم العالم المسلم طلبوا منه ان يصلى أمامهم فلما اصطف للصلاة هو ورفاقه قام الرهبان المسيحيون بضربهم بطريقة وحشية ثم السخرية منهم والعبث بهم بطريقة همجية ممجوجة[٧].

وفى بلاط مانجو خان ايضا وهو الذى حكم المغول بعد كيوك تواجد الرهبان المسيحيون بصورة واضحة ، فبعد توليه العرش بسنتين زار بلاطه وليام روبرك وغيره من الرهبان المشهورين حيث استقبلوا بمظاهر الاكرام والحفاوة[٨].

● لماذا ظهر على أوروبا المسيحية الهدوء لدرجة انهم شغلوا بالاعداد لحملتهم الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) على الشرق رغم ان هجمات المغول كانت ترج العالم كله رجا عنيفا ورغم ان هذه الهجمات كانت قريبة جدا فقد اكتسحت المجر وبولندا ولكنها توقفت عند اوروبا الشرقية ولم تجاوزها .

● هل كان لتواجد الرهبان المسيحيين فى البلاط المغولى تأثير وهل كان هذا التواجد وراء الاندفاع المغولى نحو الشرق الى جنوب الروسيا وشمال الصين واكتساح جنوب غرب اسيا وهى مناطق تواجد فيها الاسلام .

كلها أسئلة قد يؤدى بحثها الى شىء وقد تقود الاجابة عليها الباحثين الى معرفة الخيوط الرفيعة التى كانت وما تزال تربط بين الجبهات المعادية للعالم الاسلامى وتنسق بطريقة غير منظورة بين هذه الجبهات خاصة والنظرة الشاملة التى تعبر افاق القرن الثالث عشر الميلادى ـ السابع الهجرى بما يزودها به تقادم العهد من وضوح وجلاء بالاضافة الى المعطيات الجديدة لتحركات القوى السياسية والعسكرية فى القرن العشرين كل هذه امور تفجر عشرات الاحتمالات وتتيح كمّا كبيرا من المعلومات التى يمكن ان تؤدى لكثير من النتائج . ولا يفوتنا هنا الا ان نحيى ابن الاثير فقد شك بحسه الصادق ان هناك ترابطا بين هجمات الشرق وهجمات الغرب .

على العموم كان هذا عرضا سريعا لأحوال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وهو عرض لابد منه كمقدمة لما نحن بصدد الحديث عنه فى هذا البحث عن البحرين فى القرن السابع الهجرى .

ونأتى فى البداية الى سؤال كبير هو **أين كانت البحرين وسط هذه الأحداث الجسام ؟**

رأينا فيما سبق أن الخلافة العباسية دخلت فى هذا القرن مرحلة الانحلال الفعلى وأصبح الخليفة العوبة فى يد الجند ولم تكن الدويلات الاسلامية التى قامت على انقاض الكثير من مناطق الخلافة تقيم وزنا للخليفة وان حرص أمراؤها على الحصول كما قلنا على تفويض من الخليفة وهو التفويض الذى كانوا يحصلون عليه بالتهديد تارة وبالمال

عندما حمل ابن الأثير نعي الإسلام والمسلمين إلى الأجيال القادمة !

تارة اخرى . وقد حاول الخليفة فى بغداد دائما أن يضرب كلا من القوى بالأخرى ولكنه كان فى حقيقة الأمر اسير كل القوى مجتمعة فقد استعان الخلفاء العباسيون ببنى بويه الديلميين ليخلصوهم من استبداد الاتراك ثم استعانوا بالسلاجقة ليخلصوهم من البساسيرى عندما أراد تحويل الدعوة الى الفاطميين فى مصر ثم بدأوا اتصالاتهم مع الخوارزميين لتخليصهم من استبداد السلاجقة وهذا هو ما دفع بعض المؤرخين الى القول بأن الخليفة العباسى الناصر هو الذى استعان بالمغول للتخلص من تسلط الدولة الخوارزمية (٩) . على أى الأحوال فقد شبت الحرب بين المغول والدولة الخوارزمية وانتهت باكتساح سمرقند وبخارى والرى وكل منطقة ما وراء النهر . وفى سنة ٦٢٢ هـ عاد جلال الدين منكبرتى وجمع فلول جيش أبيه السلطان خوارزم شاه محمد وأعاد سيطرته على العراقين بل وهدد بغداد نفسها حتى اتفق الملك العادل الأيوبى مع كيغان كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربته واحلال الهزيمة به وفى سنة (١٢٣٠ م) اغار المغول على بلاده ثانية فهرب الى الجبال حيث قتل بيد أحد الأكراد .

كانت هذه هى حال المشرق اما بالنسبة للولايات الاسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة العربية ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبى ، وبعد وفاة صلاح الدين ثم وفاة اخيه الملك العادل سنة ٦١٥ هـ انقسمت الدولة بين ابنائه وأصبح سلطانهم على هذه المناطق اسميا .

الخلافة سلطانها اسمى وحتى الدول القوية نوعا والتى نشأت تحت عباءتها كالمماليك والتى كانت تمد نفوذها الى مناطق فى غرب البحرين أصبحت منهكة ومشغولة بالخلافات الداخلية والسلاجقة والخوارزميون تدقهم هجمات المغول دقا شديدا . كل هذه الظروف جعلت بعض القوى المحلية على شطآن الخليج سواء الشاطىء العربى أو الشاطىء العجمى تتمتع ببعض النفوذ بل وتأخذ طريقها لتصبح هى الأخرى دولا شبه مستقلة

تحكم ظروفها بعض القوى المحلية وعلاقات تقوى وتضعف مع الخلافة أو مع الاتابكيات أو مع الخوارزميين حسب تغير الأحوال .

فما هو حال البحرين فى هذا القرن المضطرب ؟

لقد قلنا فى بحثنا السابق والمنشور بالعدد الأول من « الوثيقة » ان دولة العيونيين فى البحرين بعد المؤامرة التى دبرت لقتل الأمير محمد بن احمد بن ابى سنان بن الفضل بن عبدالله بن على العيونى على يد الأمير غرير بن الحسن وراشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة عادت الى الانقسام فتولى غرير حكم البحرين والقطيف اما الاحساء فقد تولى حكمها محمد بن ماجد وبعد أن تم للفضل بن محمد القضاء على غرير واستتب له الحكم على القطيف والبحرين وجه نظره نحو الاحساء فحرض الأمير أبا القاسم مسعود بن محمد بن على بن عبدالله بن على العيونى على محاربة ابن أخيه الأمير محمد بن ماجد وفعلا نشب القتال بينهما وتمكن مسعود من قتل محمد بن ماجد وتولى الامارة فى الأحساء هو وأبناؤه . وقد أرخ الشاعر ابن المقرب العيونى لاستيلاء مسعود على الاحساء بقصيدته التى مطلعها :

اتدرى الليالى اى خصم تشاغبه
واى همام بالرزايا تواثبه

الى أن يقول :

ومن مثل مسعود الأمير اذا غدا
يغص بفضل الريق والماء شاربه
ابو ماجد[١٠] ترب العلا وربيبها
ابوه الذى تهدى السرايا مقانبه[١١]
وتلقى عليا جده خير من حدت
اليه المطايا والتقتها رغائبه
وان تفتخر بالفضل فضل بن عبدل[١٢]
فيا بابى اعراقه ومناسبه

ولكننا ومن شعر ابن المقرب وهو مصدر ثقة لهذه الفترة نجد أن الأحوال ساءت للغاية فى عهد الفضل ومسعود سواء فى البحرين والقطيف أو الاحساء ويترجم ذلك الشاعر فى قصيدته التى يقول فيها :

بعض الذى نالنا يا دهر يكفينا
فامنن ببقيا واودعها يدً فينا

الى أن يقول :

ان كان شانك ارضاء العدو بنا
فدون هذا به يرضى معادينا
الحمد لله حمدا لا نفاد له
اذ لم يكن ضعفنا الا بايدينا

وقد بلغ من سوء الأحوال أن أصبح الناس لا يأمنون على أعراضهم وأموالهم من غارات البدو وقد تلقى حادثه شكر بن مفرح بن حجاب العقيلى وهو من العقيلات من بنى عامر الضوء على ما ذكرناه . فشكر هذا كان من قطاع الطريق وكثرت حوادث سطوه ونهبه ولكن فى احدى غاراته بالأحساء تمكن بعض الأهالى من قتله فاجتمعت قبيلته وطالبت الأمير مسعود بديته فوافق على أن يدفع لهم الديه ولكن الأهالى رفضوا على أساس أن القتيل قاطع طريق ولص طالما روع الناس وآذاهم بهجماته عليهم وعلى أساس أنه قتل أثناء عدوانه عليهم فلما امتنعوا عن دفع الدية هاجمت قبيلته الأحساء ونشبت معركة رجحت فيها كفة

العقيلات فوافق الأمير مسعود ومعه الأهالى هذه المرة على دفع الدية .

هذا الضعف الذى أصاب السلطة الحاكمة فى الأحساء وجعلها تخضع لمطالب احدى قبائل البدو التى بدأت بالعداوة وقطع الطريق يعكس مدى ما وصلت اليه الحالة فى تلك الفترة وهو ما يشرحه ابن المقرب بقوله .

الى كم مداراة العدا واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتضامها
سلو عن ملوك منكم هل افادها
قعود عقيل بعدها او قيامها
يؤدى قتيل كان فى كل ساعة
يجمع او باشا كثيرا طغامها
ويقطع طرق المسلمين نهاره
عيانا ولا يثنيه عنها ظلامها
وما نيل غدرًا بل اتى فى عصابة
قليل من العذر الشنيع احتشامها
فاوجزها نجلاء طعنة ثائر
كجيب قميص لا يرجى التئامها

والقصيدة طويلة ويمكن الرجوع اليها فى ديوان الشاعر وهو يستنفر فيها أهل البلد ويثير فى نفوسهم الحماسة ولكنه لم يتطرق فيها لذكر الأمير مسعود وابنه الفضل ليأسه منهما ولما لم يجد لدعوته صدى سافر الى العراق ولعل قصيدته التى قالها أثناء سفرته هذه الى بغداد سنة ٦١٣ هـ تحدد لنا تاريخ هذه الحادثة ويقول فيها :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج فان الخطب قد فقما
ولا تلتفت الى اهل ولا وطن
فالحر يرحل عن دار الأذى كرما
ان المنية فاعلم عند ذى حسب
ولا الدنية هان الأمر او عظما
لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
اذا رأى الشر يغلى قدره وجما
واخسر الناس سعيا رب مملكة
اطاع فى امرها النسوان والخدما

والقصيدة طويلة وقد حشد فيها كل عناصر الفخر بماضى قومه وعزهم . وفى حوالى ٦١٥ هـ تمكن الأمير على بن ماجد بن محمد بن على بن عبدالله العيونى أخو الأمير محمد بن ماجد الذى قتله عمه مسعود استطاع أن يقضى على حكم مسعود وابنه الفضل وأن يستولى على الأحساء وتصل هذه الأخبار الى ابن المقرب فى بغداد فيعود الى الأحساء مادحا الأمير على بن ماجد بقصيدته التى مطلعها :

صدت فجذت حبل وصلك زينب
تيها واعجبها الشباب المعجب
يا هاجر الأوطان تطلب ماجدا
يلجا اليه من الزمان ويهرب
انزل على الملك الذى بفنائه
تلقى الرحال ويستريح المتعب
لله درك يا على فلم يعد
الاك فى هذا الزمان مهذب
اضحت بك الاحساء ساكنة وقد
خفت بمن فيها وكادت تقلب
ومنعتها من بعد ما كانت سدى
فى كل ناحية تغار وتنهب
وملأتها عدلا وكانت عممت
جورا تفور به الديار وتخرب

ولكن لم تطل مدة حكم على بن ماجد فقد هاجم الأحساء الأمير مقدم بن غرير بن الحسين بن شكر بن على بن عبدالله وفى الصفحة رقم ٥٤٢ من ديوان ابن المقرب علق صاحب الديوان على هذه الحادثة قائلا :

حين خرج الأمير على بن ماجد من الأحساء بقيت قوم من أهل البلد مع مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر بن الحسن بن عبدالله فملكها وكانت السلطنة بالبحرين قد ضعفت وساء تدبيرها وذلك انهم صاروا يقدمون قوما ليسوا من أهل الشرف ولا من أرباب الدولة ولا من القرابة لهم حتى زهد فيهم الصديق وبغضهم ذوو قرابتهم وطمع فيهم العدو ، وصارت العامة تقدم من تريد وتؤخر من تريد من السلاطين ومما بلغ من سوء تدبيرهم انه اذا ملك أحدهم أخرج جميع أهل الفضل والشرف من البلد فخرجت المملكة من أيدى أهلها بفساد التدبير وصارت البلد للعدو الذين هم البدو وما بقي السلطان يقدر على مال يجند به جنودا تمنعه وتحفظه وتدفع عنه بأس رعيته فاجترت الرعية وصار كل له صولة وكل يريد الملك على يديه ، وأعتنوا بذهاب الى ابراهيم . وغرير بن الحسن نشأ في البادية الأمر الذى جعله لا يعرف أهل البلد فأجاب أهل الخدع والمكر الى ما ارادوه في آل ابراهيم فقبض على عدة رجال منهم وألقاهم في المطمرة[١٣] ونهب ما في خزائنهم .

وبعد أن يئس ابن المقرب من نصح غرير سافر الى القطيف ونظم قصيدته التى مطلعها :

كم بالنهوض الى العلا تعدانى
ناما فما لكما بذاك يدان

ويقول شارح الديوان ان الشاعر ابن المقرب ارسلها الى ابراهيم بن جروان أحد رؤساء الأحساء وهذا خطأ لأن ابراهيم ابن جروان جاء بعد زمن الشاعر بوقت طويل والصحيح أن القصيدة ارسلت الى الأمير محمد بن عبدالله بن سنان يؤكد ذلك أحد الأبيات التى وردت فى القصيدة وهو يحدد بوضوح المرسل اليه والبيت يقول :

وصلوا حبالكم بحبل محمد
نجل المعظم عبدل بن سنان

ومحمد بن عبدالله بن سنان هو الآخر من آل ابى جروان وقد يكون ذلك هو السبب فى اختلاط الأمر على شارح الديوان وهذه القصيدة طويلة وهى تصف حالة البحرين فى أواخر ايام العيونيين خير وصف . وبعدها سافر الشاعر سفرته الطويلة الى الموصل للقاء الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وكان صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين وذلك فى سنة ٦١٨ هـ وقد انتهت دولة العيونيين فى الأحساء بغرير وانتقل الحكم الى آل عصفور من بنى عقيل بن عامر وأول حكامهم عصفور بن راشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة .

أما فى الشطر الثانى من دولة العيونيين وهو أوال والقطيف فقد ذكرنا أمراءهم فى بحثنا عن العيونيين بالعدد الأول من « الوثيقة » وانتهينا الى عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وهى السنة التى انتهى فيها حكم فاضل بن ماجد بن احمد بن أبى سنان بن عبدالله بن على العيونى وخلفه على الحكم أخوه جعفر بن ماجد ولم تطل مدة حكمه الا أشهرا ثم اخرجه المسيعيد من القطيف وتولى الأمر بعده ابناء الأمير مسعود بن احمد بن محمد أبى سنان بن الفضل بن عبدالله العيونى والأمير مسعود المقصود هنا غير الأمير مسعود بن محمد بن على بن عبدالله العيونى الذى حكم هو وابنه الفضل الأحساء . أما ابناء الأمير مسعود بن احمد فهم محمد وحسين

وحسن (راجع شجرة النسب المنشورة مع هذا البحث) وقد تولى ابناء الأمير مسعود الامارة على البحرين والقطيف حوالى عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وذكرهم ابن المقرب جريا على عادته فى التأريخ لأمراء البيت العيونى فى ثلاث قصائد ٧

فقد مدح الأمير محمد بن مسعود ويكنيه « أبا على » بالقصيد التى يقول فيها :

بعثت تهدد بالنوى وتوعد
مهلا فان اليوم يتبعه غد
ينميه عبدالله والفضل ابنه
وابو سنان ذو الفخار واحمد
وأبوه مسعود الطعان وعمه
ذو البأس والكرم الأعم محمد
يا طالبا فى الناس مثل محمد
اقصر فمثل محمد لا يوجد
يا أباعلى دعوة من مخلص
لكم الهوى وبذاك قلبك يشهد
واليكها يا أبا على مدحة
من فضلها انى عليها أحسد

ومدح الأمير حسين بن مسعود بقوله :

بالسيف يفتح كل باب مقفل
وتحل عقدة كل امر مشكل
كن كابن مسعود حسين فى الندى
والباس أو فعن المكارم فاعدل
فضل أبوهم والمعظم عبدل
من مثل فضل فى الفخار وعبدل
واذا عددت أبا سنان وابنه
وابن ابنه فاشرب خصيمك أو كل
يا من يقيس بال فضل غيرهم
لا توهمن الدوح غير القرمل

ومدح الأمير حسن بن مسعود بقصيدته التى مطلعها :

أراه الهوى ما لم يكن فى حسابه
فاقلقه عن صبره واحتسابه

هكذا كان الحال فى داخل البحرين أثناء الحكم العيونى والذى استغرق قرابة النصف الأول من القرن السابع الهجرى فالبيت العيونى منقسم على نفسه الى ثلاثة بيوت هى بيت الفضل وبيت ابى على الحسن وبيت أبى منصور وتكاثر ابناء البيوت الثلاثة الى عشرات الابناء وتكاثرت معهم النزاعات والحروب والصراع من أجل الحكم . وقد يكون من المفيد ان ننظر الى ما يجرى على الشاطىء الآخر للخليج باعتباره ذا تأثير على مجريات الأمور فى البحرين وقتئذ .

وهذا يقتضى منا العودة للوراء قليلا . فقد زحفت قبائل الغز التركية فى أوائل القرن الخامس الهجرى قادمة من بلاد ما وراء النهر وظهرت فى خراسان وتمكن طغرل بك السلجوقى (٤٢٩ هـ) واخوته من انشاء الدولة السلجوقية واستطاع هو ومجموعة السلاطين العظام من آل سلجوق مثل ألب ارسلان وملكشاه ومحمود ناصر الدين وبركياروق ومحمد وسنجر أن يقضوا على دولة بنى بويه ـ كما قدمنا ـ وأحكموا قبضتهم على الخلافة العباسية حتى أصبحوا يتحكمون فى تعيين الخليفة وعزله وسجنه فى كثير من الأحيان وتغلبوا على كثير من البلاد الاسلامية وحكموها شكلا باسم الخليفة وان كان هذا لم يمنع من أن يدعو لأنفسهم على المنابر بعد اسم الخليفة .

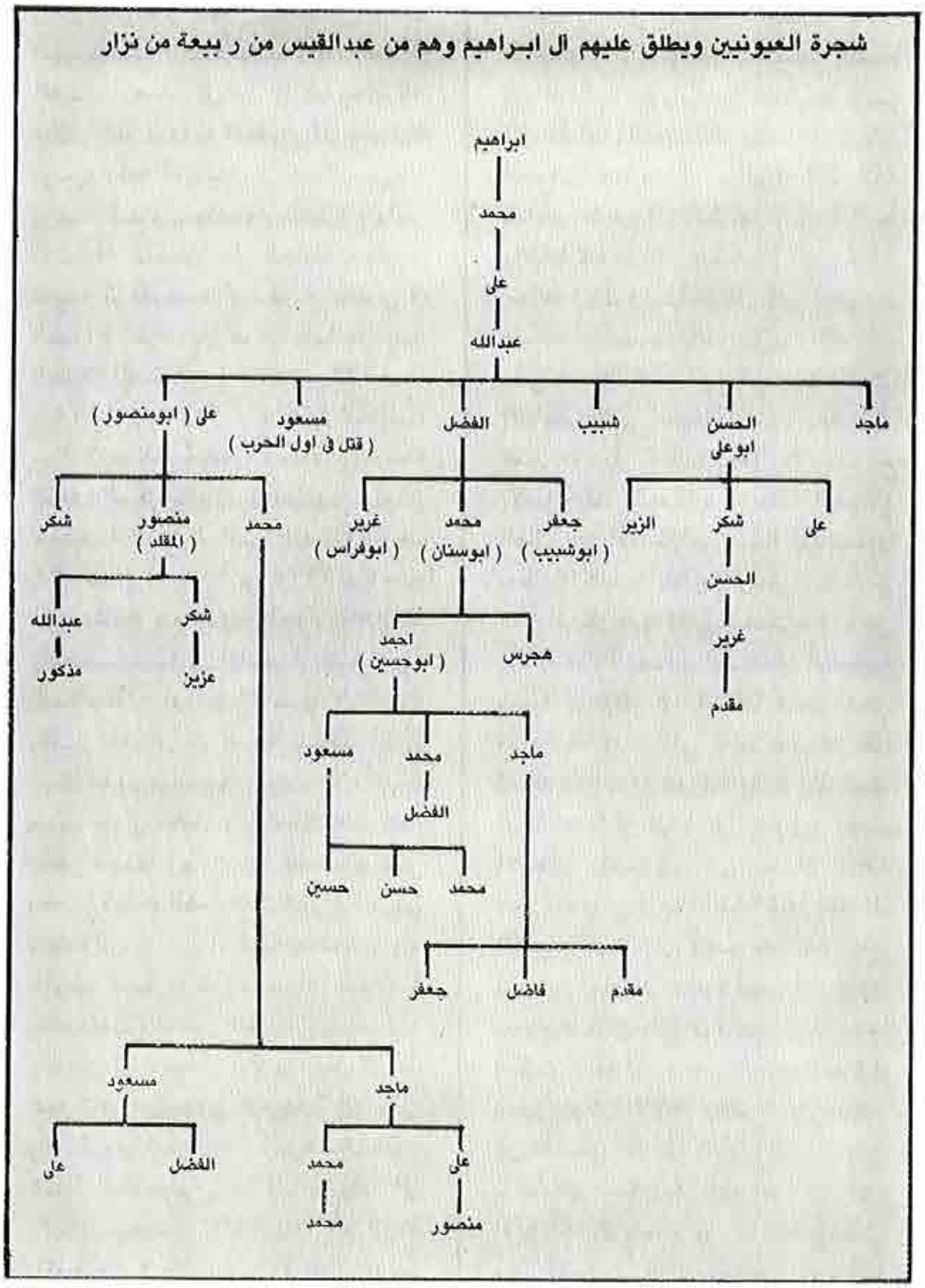
شجرة العيونيين ويطلق عليهم ال ابـراهيم وهم من عبدالقيس من ر بيعة من نزار
ابراهيم
محمد
على
عبدالله
على (ابومنصور)
مسعود (قتل فى اول الحرب)
الفضل
شبيب
الحسن ابوعلى
ماجد
شكر
منصور (المقلد)
محمد
غرير (ابوفراس)
محمد (ابوسنان)
جعفر (ابوشبيب)
الزير
شكر
على
الحسن
غرير
مقدم
عبدالله
مذكور
شكر
عزيز
احمد (ابوحسين)
هجرس
مسعود
محمد
ماجد
الفضل
حسين
حسن
محمد
جعفر
فاضل
مقدم
مسعود
ماجد
على
الفضل
محمد
على
محمد
منصور

الوثيقة ـ ٢١

ولكن فى أوائل القرن السادس اصاب الهرم دولة السلاجقة وانقسمت الى أتابكيات وصلت الى ١٨ أتابكية يحكم كلا منها اتابك يدفعه الطموح الى محاولة توسيع رقعة اتابكيته على حساب جيرانه وشبت الحروب واشتعل الصراع وأخذ الأتابكة يلجأون الى الخليفة يطلبون تأييده أو تفويضه أو دعمه المعنوى فى الصراع الدائر بلا هوادة فلما حل عهد الخليفة المسترشد (٥١٢ هـ ٥٢٩ هـ) (١١١٨ م/١١٣٥ م) بدأ الخلفاء محاولاتهم لتقوية نفوذهم منتهزين فرصة ضعف السلاجقة وتمزق دولتهم . وتمكن الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ ٦٢٢ هـ) (١١٨٠ م/١٢٢٥ م) من دعم علاقته مع الدولة الخوارزمية الناشئة واستخدمها فى الاجهاز على دولة السلاجقة عام (٥٩٠ هـ/١١٩٣ م) وقتل طغرل بن الب ارسلان آخر سلاطينهم بواسطة جيش علاء الدين محمد خوارزمشاه واستعادت الخلافة بعض هيبتها وعادت لها السيطرة على بعض الأقاليم الضائعة فى العراق العربى والأحواز وبدا أن الخليفة يستعيد ـ ولو لفترة ـ سيطرته على مقدرات الخلافة متحررا فى ذلك من النفوذ الذى فرضه سلاطين السلاجقة . والذى وصل الى حد انهم كانوا يرسمون السياسة الداخلية والخارجية للخلافة . وعندما تحللت الدولة السلجوقية كما قلنا تفرقت الى اتابكيات وحول الاتابكيات قام الولاة والمتنفذون فى كثير من الأقطار وفى جو الفراغ الذى خلقه تهاوى الدولة السلجوقية بالاستقلال بما تحت أيديهم من أقاليم مؤسسين مجموعة من الامارات والدويلات والمشيخات الصغيرة هنا وهناك . فالدولة العملاقة كانت تنقسم الى اتابكيات كما قلنا والاتابكية كانت عبارة عن اقليم كبير يحكمه أتابك وفى داخل كل أقليم أصبحت هناك المشيخات والدويلات والأمارات وهى بدورها كانت تتبع من حيث الشكل الاتابكية التى انفصلت عنها ولكنها فى غالب الأحيان كانت تخلق علاقات مع الاتابكيات المجاورة مستغلة الصراع القائم بين الاتابكيات نفسها فى تحصيل بعض المكاسب الاقليمية وحتى فى المناطق التى لم تكن فيها قوى سياسية قادرة على انشاء هذه الوحدات السياسية الصغيرة شبه المستقلة أو المستقلة قامت بعض الاسر الثرية والتى كانت تسيطر على التجارة بالتحول الى السياسة وتأسست امارات كان لها دور بارز فى بعض الأحيان . كانت هذه هى السمات العامة للجو السياسى فى هذه الفترة فاذا جئنا الى الخليج نجد بنى قيصر يتمكنون من تأسيس امارة فى جزيرة قيس أصبح لها فيما بعد تأثير بارز فى تاريخ الخليج كما تمكنت عائلة أخرى من تأسيس امارة فى هرمز وتمكن الاتابك مظفر الدين سلغر من تأسيس اتابكية شيراز التى عرفت بالاتابكية السلغرية . وقد سارعت هذه الامارات الى كسب ود الخليفة العباسى حتى تضفى على حكمها صبغة

الشرعية . ولكننا نجد الدولة السلغرية تتعرض لهجوم دولة خوارزم شاه فقد اصطدم حاكمها سعد زنكى بعلاء الدين محمد خوارز مشاه واسفرت المعركة عن وقوع سعد زنكى فى الأسر وأطلق سراحه علاء الدين بعد أن عقد معه اتفاقية تنازل سعد زنكى بمقتضاها عن جزء من بلاده كما وافق أن يخطب لعلاء الدين على منابر بلاده وأن يضرب العملة باسمه وان يرفع الراية الخوارزمية ، وتتصاعد الأحداث ويعيد التاريخ نفسه . فكما كبر البيت السلجوقى وأصبح يتحدى الخليفة كبر كذلك البيت الخوارزمى وبدأ يتحدى الخليفة العباسى وأصبح سعد زنكى هو الآخر وبحكم تحالفه مع الخوارزميين يناوىء الخليفة . وبلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه (٦١٤ هـ) حتى انه حاول أن يستولى على بغداد وهاجمها بالفعل ولكنه أخفق بعد أن تعرض جيشه لبعض الكوارث الطبيعية على جبال العراق فأسرع بالعودة الى بلاده التى أخذ الخطر المغولى يتهددها فى سنة (٦١٦ هـ/١٢١٩ م) فقد انطلق جنكيز خان فى زحفه الكاسح الذى طوى الكثير من المدن الاسلامية وعندما عاد جنكزخان الى بلاده سنة ٦٢٠ هـ كانت الدولة الخوارزمية بدورها قد تمزقت شر ممزق ومات علاء الدين خوارزمشاه دون أن يجد له أصحابه كفنا يوارون به جثمانه وفر ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى مع قسم من جيشه الى الهند ولم يبق الا ابنه غياث الدين الذى تمكن من الاحتفاظ بقسم من العراق لم يصل اليه المد المغولى الأول . وبعد انحسار الهجمة الأولى للمغول وسع غياث الدين سلطانه على خراسان واقليم مازندران . ولكن جلال الدين منكبرتى وبعد أن علم بعودة جنكزخان لبلاده عاد من الهند وهاجم أخاه غياث الدين وسارع حكام الاتابكيات بتقديم الطاعة له واستطاع ان يستعيد أكثر الأقاليم التى كانت تابعة لأبيه . ولم ينس موقف الخليفة من أبيه وجده فأزمع مهاجمة الخلافة وبالفعل هاجم مدينة تستر عاصمة اقليم الأحواز التابع لحكم الخليفة ثم رحل عنها وهاجم بغداد سنة (٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م) وفى هذه السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله وكان فى سنينه الثلاث الأخيرة قد أصبح عاجزا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه وضعف ابصار الثانية وفى نهاية أيامه اصابته دورسنطاريا حادة لازمته عشرين يوما فقضت عليه[١٥] وخلفه ابنه الظاهر الذى حاول أن يعقد صلحا مع السلطان جلال الدين منكبرتى ولكن المنية لم تمهله فمات سنة (٦٢٣ هـ/١٢٢٦ م) وخلفه ابنه المستنصر وبقى العداء مستحكما بين الخليفة المستنصر والسلطان منكبرتى لذلك لا غرابة اذا ما رأينا الاتابك سعد بن زنكى حليف السلطان منكبرتى وابنه ابابكر يحاولان بتحريض من السلطان الخوارزمى تقليص نفوذ الخليفة على امارة قيس وامارة البحرين التى كانت